



أنسي الحاج

خواتم | 3

قارئ

«خيانة اللغة والصمت»

تلقيتُ من «دار الجديد» كتاباً بعنوان «خيانة اللغة والصمت» للشاعر والصحافي السوري فرج بيرقدار. نقرأ في الشرح على الغلاف الأخير: «كان اعتقاله آخر مرة بسبب انتمائه إلى حزب العمل الشيوعي، في 31 آذار 1987 بعد أربع سنوات من التحفي والملاحقة. أحيل، عقب ست سنوات من التوقيف، على محكمة أمن الدولة العليا في دمشق، فأصدرت بحقه حكماً بالسجن خمسة عشر عاماً مع الأعمال الشاقة والحرمان من الحقوق المدنية والسياسية. بعد أربعة عشر عاماً من الاعتقال قضاهما ما بين فروع الأمن وسجن تدمر الصحراوي وسجن سيدنايا العسكري، أفلحت الحملة الدولية المطالبة بالإفراج عنه في حمل السلطات السورية على ذلك». واليوم يقيم في أسوج.

لماذا يعتقل شخص بتهمة الانتماء إلى حزب شيوعي؟ وكيف يستمر «توقيفه» ست سنوات؟! توقيف بلا محاكمة. توقيف في ما يشبه التغييب الكابوسي، بل أقطع، لأنها حالة من التعليق النفسي بالقلوب، وربما الجسدي أيضاً، فمن يردع؟ وما يعيب أيضاً أن بيرقدار، الشاعر والصحافي، لم يذل من اتحادي الكتاب العرب والصحافيين العرب أي اهتمام، ورغم انتسابه إلى اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين عام 1981، «لم يجرؤ هو الآخر على الاعتراف بأي عضو فيه». أبدو كل مسرور بكونه غير معتقل إلى مطالعة هذا الكتاب، علّه يقدر معنى كونه طليقاً، أو، بالعكس، يقرّر أن لا فرق جوهرياً بين «حريته» وعدمها داخل مجتمعات تمييز فيها بين يوم في المعتقل وسنة وألف سنة، لأن السجن هنا هو للربح والإمانة، وهو انتفاء معايير الحساب أو الرحمة، وهو الآخرة.

ما هو السجن في العالم العربي؟ إنه الوجه الحقيقي للسلطة.

الجرح لا الوحي

دعنا نفضّل أن يكون الحبّ البشري بدايةً محتملة لبلوغ حبّ إلهي، لا العكس. دعنا نفضّل الينبوع الكسير على الشلال الخطير، والجرح على الوحي. لا تحفّ من شخص يخفيه حبّ شخص، إنّما من شخص مذهب حبّ الله. لا تحفّ من رجل يغار على امرأة، بل من إنسان يغار على الله.

بشاعات سينمائية

حلمٌ بتخليص حلم من كوابيس. حلمٌ بتنقية السينما من مبيدات تتذرع بالواقعية، والعذر قبيل كالذنب.

حلمٌ بالغاء جميع المشاهد الجارحة والمقرفة من السينما (التوليد، نوبات المخاض، تنظيف الأسنان، قضاء الحاجة، خلع الملابس الداخلية أو ارتداؤها، شمّ الأصابع للتأكد من رائحتها، بروز طبّات الأندرويد تحت الفستان، التهام الدجاج مع انغماس يدي الرجل في شعر المرأة، تلعيب السكين في بطن الذي يطعن، مشاهد النوم والشخير وسائر النشاطات المقرّزة، الجوارب ارتداءً وخلعاً، - وخصوصاً للرجال - أصابع القدمين، تبادل

الكلام من فم إلى فم كأن فموي الشخصين فارورتا طيب لا فوهتا أمعاء، عمليّات الجراحة، إعلان الفتاة عن زهايتها إلى الحمام كأنها تطلق نكتة، مشاهد التقيؤ... والبقية طويلة). نجت السينما من بشاعة كبيرة بفضل كون الشاشة بلا رائحة. مشاهد كالمذكورة آنفاً تحنق حنقاً، الرائحة ليست الرائحة المختصة بالأنف وحده، بل المشمومة أيضاً بالأذن والعين والذاكرة والخيال ومختلف الحساسيات. السينما أجمل حلم اخترعه القرن العشرون. تطيح الأحلام أبشع جريمة.

بخلاء (3)

لفرط ما نرى كم يخسر البخلاء ببخلهم من آيات كان يمكن أن يُحقّقوها بعدم البخل، لا نأسف للآيات بل نشفق على البخلاء. البخل يظنّ أنّه حيّ بينما هو نزيل خزانة مغلقة. كيف يحيا البخل والحياة إنفاق؟ كيف يحبّ والحبّ إنفاق؟ كيف يشعر والشعور إنفاق؟ كيف يسكر، يستمتع، يقرأ، يصغي، يُشاهد، كيف يمشي وكل واحدة من هذه إنفاق؟ لا يربط البخل بالحياة إلا الموت. البخل أول القفل والقبر آخره

وأوة

«اي (ألفظ È) هناك تفهّم، اي، إسرائيل تفكّر في نوعيّة تسليحها، اي، في دخول مئات من الجنود المصريين، اي، إلى سيناء، اي، حالياً، اي اي، من هنا أنطلق، اي، إلى النظر، اي، في، اي، توافق المصالح، اي، المصرية، اي، والإسرائيلية، اي اي...» مقطّع صغير من تصريحات أدلى بها مسؤول إسرائيلي لفضائية عربية. حرفياً بدون زيادة. كل كلمتين ثلاث يضع الإسرائيلي المتكلم بالعربية حرف È. عندما كنّا نسمع نشرة الأخبار العربية من إذاعة إسرائيل كنا نُعجب لرصانة المذيع وسلامة اللغة وحسن النطق. لو بقيت إسرائيل على نمطها الإذاعي القديم لظللنا مخدوعين بتلك الصفات. الارتجال، والارتجال التلفزيوني خاصة، كُشف العورات. لا أظنّ أنّ هناك أسمع من هذا اللفظ. لغة بأثما وأبيها تصبح مبسوطة على مخدات مترامية من حرف È. جُلّعة مهروقة بسماجة ولد لا يعرف لسماجته حدوداً. والأفزع ليس أن معظم الإسرائيليين الناطقين بالعربية يشوهونها على هذا النحو، بل إنّ العديد من عرب فلسطين المحتلة بات نطقهم يعرج ويسكع ويأوى بهذه الطريقة.

خطأ أساتذة اللغة أنّهم يعلمونها بالكتب عوض أن يعلموها بالصوت. القواعد للذاكرة، أما اللفظ، فهو للأصول وللذوق قبل الأصول.

وأوة العربية نكبة ثانية.

أكثر

فوق القانون، هناك أكثر. فوق الفضيلة، هناك أكثر. فوق الممتاز والبهاء والوفاء والتضحية والجود والمروءة وسائر الأخلاق

هناك دائماً أكثر.

إنّه البُعْد الذي نستسلم إلى افتراض وجوده فيما لا نعود قادرين على الاستيعاب ولا على التحليل. الأفق الذي يتراءى وراء الأفق. شيء كنّا ننتظره فيأتينا بأكثر ممّا كنّا ننتظر. ما هو هذا البُعْد؟

وهل هو الذي يوقظ حاجتنا إليه أم نحن، وفي لحظة مجهولة، نوجد له ظروف الكينونة؟ هذا الأكثر، بُرهانه في المتلقّي المنفعل هو على العموم برهان صغير. برهانه الأعظم هو في الفاعل، في المالك، مالك «هذا الأكثر» بريشته أو نغمه أو قلمه، تطير به نعمته فتصله بالمصادر معلومة ومجهولة.

نعمة تنسكب عفويةً شبه معذرة، أو تنسكب ساحقة، نعمة هي، لمن ينفع بها هذه المرة، أقوى ممّا هي للملكها.

قارئ

أنشر أحياناً ما تجعلني ردة الفعل عليه أرتب وأرتاب في مفاهيمي.

غالباً ما أتخيّل القارئ توأماً لي فأستسلم إلى الكتابة كمن يستسلم إلى تأملاته. ولعلّ لهذا محلاً في الكتاب لا في جريدة. وفي جملة التباساتي أنّي أتخذت من الصحافة كتاباً لي قبل الكتاب.

ليس القارئ واحداً هنا وهناك. إذا أردنا تشبيهاً سطحياً قلنا: قارئ الجريدة سائح في مقهى، وقارئ الكتاب كاهن في كرسية المغلق يصغي إلى معترف. يحقّ للمعترف ما لا يحقّ للمارة أمام المقهى ولا لجالسه.

في جميع الحالات للقارئ حرية لا يعرفها الكاتب، هي حرية من يختار. أمّا الكاتب، فخياراته هي من نوع آخر، والصحيح أنّها كلّها فروض وانضباطات، والاختيار فيها من مرتبة القدر أو مصارعة القدر، ولا أثر هناك لحرية من يتفرّج ويختار.

يظنّ الكاتب أحياناً أنّه يكتب لنفسه وحدها غير عابئ بمن سيقراء، وهو ظنّ بناءً وواهم معاً. حتّى في النسخة ومنتهى التوحّد والانقطاع عن الآخر يستحيل أن لا يخاطب الصامت شيئاً، فكيف بالكاتب، والكتابة أخذ للحياة من قلبها. هناك على الأقلّ قارئ بالقوة يتوجّه الكاتب إليه، قارئ مُتخيّل هو في الحد الأدنى الوجه الآخر أو الوجه الأخرى للكاتب نفسه. القارئ هو الكاتب نفسه أولاً، الكاتب هو قارئ لنفسه يفصله عن كتابته حسّه النقدي. القارئ الآخر، «الغريب»، «إله يحكم» كما سمّاه بلزاك. ملاك قد يسقط معك أو شيطان قد ينتزع بفضلك خلاصه.

من هو القارئ المثالي؟ إنه الذي يقرأ. أمّا القارئ المرغوب، فهو الذي يعيد القراءة. وحتّى يُعيد القراءة وجب أن تكون بينه وبين الكاتب موجة مشتركة أشدّ قوّة من موجة الهوى الأولي. إعادة القراءة هي الامتحان الأقسى للكتابة.

وهناك قارئ يطّلع على ما يطالع مثلما تطلع الشمس. وقارئ يُخصب ما يقرأ مثلما يُخصب الزارع الأرض.

القارئ المثالي هو من يجعله الكاتب ينسى.

تغيب هذه الصفحة أسبوعين في إجازة.